العراق وإيران

الدكتور عبد الستار قاسم

6/صفر/1422

يبدو أن كل المقالات والنداءات والخطابات التي كتبت ودوّت وألقيت حول العلاقات بين العراق وإيران وضرورة الاحتكام إلى التروي والعقل والشريعة الإسلامية والحكمة والمنطق لا تجد صدى لدى أي من الدولتين. هناك إصرار واضح على مواصلة العداء الساخن الذي يكلف غاليا كلا من الدولتين ومعهما الأمة العربية والإسلامية. يحتضن العراق بعض المعارضة الإيرانية ويفتح لها القواعد وأمامها الحدود، وتحتضن إيران بعض المعارضة العراقية وتفتح لها مختلف وسائل إعلامها وقدراتها الاستقطابية التي تؤثر سلبا على النظام في بغداد، ولا يخلو الأمر من قصف وقصف مضاد. والمهم أن الدولتين تعيان تماما خطورة ما يقومان به والثمن الباهظ الذي على كل منهما دفعه.

تستعصي الحالة بين العراق وإيران على التفسيرات العلمية القائمة على الحسابات والمصالح التي يمكن تحقيقها من خلال استمرار العداء وعدم حل المشاكل القائمة. من ناحية العداء الخارجي، مثلا، لا تكف الولايات المتحدة عن قصف العراق ولا عن التحريض ضد إيران. وكذلك الأمر بالنسبة لإسرائيل التي تتوعد الدولتين النظامين على اعتبار أن كلا منهما يشكل خطرا استراتيجيا عليها وأنهما يحضران منفردين العدة والعدد من أجل الانقضاض عليها. من التلقائية والعفوية البريئة التي لا تحتاج إلى عبقرية أو عمق تفكير أن يلجأ الذين يواجهون ذات الخطر إلى بعضهما البعض أو أن يتعاونا من أجل إبعاده أو القضاء عليه أو الاتقاء منه. وبإمكان هؤلاء أن يعودوا بعد ذلك إلى حالات العداء والقتال إذا وجدوا أن ذلك مناسبا ومفيدا.

تواجه العراق وإيران ذات الخطر الكبير والداهم وتستمران في حالة عداء تخلو تماما من الذكاء. وبعد تجوال في احتمالات تفسيرية لما يجري لم أجد سوى احتمالين: يكمن الأول في أن العداء الأمريكي والصهيوني لكلا النظامين أو لأحدهما ليس حقيقيا وأن ما يتوارد في وسائل الإعلام لا يعبر تماما عن الحقيقة. ربما يلعب النظامان أو أحدهما لعبة تقليدية تعرفها منطقتنا تماما وهي خدمة العدو من خلال التمثيل بالعداء مثلما حصل مثلا مع أطراف عربية في حرب عام 1967 وحرب عام 1982. من أجل استنزاف طاقات المنطقة وبالذات طاقات الدولتين قد تعمد الولايات المتحدة وإسرائيل إلى تفعيل عملاء يشعلون فتيل حرب تتغذى على الأخضر واليابس فلا تعود للعرب أو لإيران مقدرة على التحدي سواء على الصعيد الخارجي أو على صعيد معركة البناء الداخلي. وقد جربنا في الحرب السابقة الدول الغربية التي عملت صديقة لكل طرف لما في ذلك من استنزاف لطاقات عربية وإيرانية مرغوب فيه. وفي هذا لا تحتاج أمريكا لأكثر من طرف واحد متعاون لأنه كفيل بجر المنطقة ككل إلى مأساة يدفع ثمنها الجميع دون أن تضيق بمتعاونين آخرين. أما الثاني فيكمن في غياب الحنكة السياسية لدى قادة النظامين أو أحدهما، (أو في غباء سياسي إذا شاء أحد استخدام مصطلح أقل كياسة وأكثر دقة). ربما يرى آخر أن هناك احتمال ثالث متعلق بالمصالح الذاتية بمعزل عن مصالح الأجنبي. قلّبت هذا الاحتمال مرارا وتكرارا ولم أجد تبريرا ذا قوة حول كيف يمكن أن يخدم قائد مصالحه الذاتية من خلال عداء مزعج ومقلق ومدمر. إذا

كان الأمر متعلقا مثلا بشرف إحراز نصر عسكري فلا أظن أن الحرب السابقة بين النظامين قد أنجبت غير الخيبة والعار، وإذا كان متعلقا بمال فإن الحرب مكلفة ولا تبقي على الكثير من مال الاختلاس والسرقة.

ربما يظهر علينا النظامان أو أحدهما بتبرير يقوم على مساعدة المعارضة في وجه الاستبداد والظلم ومن أجل الإطاحة بما يمكن أن يصفه كل منهما بنظام الجهل والظلام والاستعباد. أي أن المسألة حسب هذا التفسير تأخذ البعد الإنساني القائم على حقوق الإنسان والحريات والمحافظة على الأموال العامة للناس، الخ. من الصعب جدا أن يلقى هذا التفسير قبولا في مواجهة انطباع غير صحي صنعه النظامان في عقول الناس حول احترامهما للإنسان وحقوقه. يشاهد العربي والمسلم المحاكمات في إيران ويسمع بما يلاقيه رئيس الجمهورية من صعوبات في تطبيق برنامج انتخبه الناس بناء عليه، ويشاهدان مدى الحريات التي تتمتع بها وجهات النظر المختلفة في العراق.

إذا كانت هناك جدية في دعم المعارضة من كلا الجانبين لأسباب إنسانية فإن الخصام يمكن القضاء عليه بسهولة ودون قتال. يقوم كل نظام بتوفير الأجواء المناسبة لمعارضته في الدولة التي يحكمها ويرتاح الجميع. الهدف إنساني والإجراء هذا في قمة الأعمال الإنسانية وبإمكانه أن يصنع علاقات ود ووئام بين النظامين وبالتالي بين الدولتين. لكن بما أنه من المشكوك فيه أن يكون النزاع قائما على مثل هذا الأساس فإنه من الوارد جدا أن النظامين يستخدمان المعارضة لأسباب لا علاقة لها بالمعارضة ذاتها.

بما أن دعم المعارضة لأسباب إنسانية غير وارد فإن المأساة تصبح مزدوجة: هناك خصام يراد له أن يشتعل مع ما يكلف من خسائر وأعباء وهناك استغلال لأناس يتعطشون للتغيير من كلا الجانبين. هذا علما أن بعض المعارضة ليس بريئا بمعنى أن دولا معادية للعرب والمسلمين تدعمها بالمال والسلاح. يخطئ من يقول أنه لا توجد معارضة لكلا النظامين ويتجاوز الحقيقة الموضوعية، ولا يوجد نظام في العالم سواء كان سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا لا معارضة له، لكن الفارق شاسع بين معارضة نابعة داخليا وأخرى تسيرها قوى خارجية لأهداف معادية للأمة والشعوب. هل تطمئن كل من العراق وإيران أن الدعم لمعارضة الطرف الآخر ليس دعما لسياسة قوى خارجية مثل إسرائيل؟ الجواب بالنفي قطعا لأنهما يعلمان تماما أن هناك دعما يتم تقديمه على شاشات المرناة (التلفاز) لمعارضة كلا النظامين وهناك تصريحات مستمرة لمسؤولين أجانب تؤكد هذا المنحى. هذه مسألة معروفة ولا يستطيع طرف أن يدعي الجهل بها وهي في عمق الوعي الرسمي والشعبي، ولا يمكن الفرار من تبعات الانغماس فيها. وسواء أدرك النظامان مضمون الأمر أو لم يدركا إنهما يعززان الشكوك حول ما يحاولان قوله للجماهير على طرفي الحدود ويدفعان باتجاه الظن بأن ارتباطا بقوى خارجية قد يكون قائما.

تحاول الدعاية السياسية لكلا النظامين أن تتجاوز أمورا موضوعية لا مفر من تأثيرها على الدول والشعوب. هناك ظن إيراني أن إيران تستطيع شق طريقها نحو العزة والتقدم والبأس بدون العرب، وأن لديها من الإمكانات ما يؤهلها لذلك. هذا ظن يقود إلى خطأ جسيم كما قاد ويقود دولا أخرى في المنطقة. ظنت مصر يوما أنها تستطيع شق طريقها بمعزل عن محيطها ولكنها تعثرت، وتظن تركيا الآن أن بإمكانها أن تفعل ذلك ولكنها متعثرة وستزداد تعثرا. الأمم تكبر الآن ولا تصغر وتتعاون نحو تكتلات كبيرة إذا شاءت أن يكون لها موقع على خارطة الفعل الحضاري المؤثر. صحيح أن لإيران محيطا ضيقا ناحية الشرق لكن المحيط العربي هو الأوفى والأوسع والأشمل. تستطيع إيران أن تكون قوية وذات ترسانة عسكرية وتقنية قوية لكنها لن تتجاوز حجمها إلا

بالعرب الذين يملكون طاقات وإمكانات هائلة. ومن مصلحتها ومصلحة العرب أن تحل ما هو قائم من مشاكل أو تتجاوزها، وأخص بالذكر مشكلة الجزر مع دولة الإمارات العربية.

أما العراق فيستمر بتذكير العرب بالمجوس وكسرى وينسى ما كنا نحن عليه قبل الإسلام وأن أبا جهل عربي وأبا لهب عم الرسول عليه الصلاة والسلام. العار ليس فيما كان تاريخيا وإنما أن يبقى الإنسان عابدا لما كان. العرب من النواحي الاستراتيجية بحاجة لإيران وتركيا والحبشة وربما إلى نيجيريا. نحن لسنا بحاجة لزيادة أعداد أعدائنا ولدينا ما يكفينا ويفوق طاقاتنا. هناك من يريدون قصم ظهورنا وظهور الإيرانيين من أهل الغرب والصهاينة اليهود ولن يكونوا رحماء لا بأطفالنا ونسائنا ولا بأطفال إيران ونسائها ولن يكونوا راغبين في التعايش مع مسلمين حيثما وجدوا، ولا حكمة في صنع عداوات تثقل علينا وتعينهم فنكون الذين يخربون بيوتهم بأيديهم. وإذا كان وضعنا الداخلي الآن مهلهلا ولا يقوم على رؤية استراتيجية فإن ذلك لا يعطينا تصريحا بتجاوز ما يمكن البناء عليه مستقبلا.

على صعيد القضية الفلسطينية، يلاحظ المراقب مدى الحماس الذي يبديه النظامان للمجاهدين والمناضلين الفلسطينيين على مختلف الأصعدة المالية والإعلامية، وإلى الحد الذي يتطلب متطوعين وجيوشا. استقبلت إيران الجرحى وقدمت الدعم بمختلف أشكاله وأقامت مؤخرا مؤتمرا إسلاميا لدعم الانتفاضة. لم يتلكأ العراق أيضا في تقديم مختلف أنواع الدعم وعلى رأسها ما شاهده الناس من حشد الجند تمهيدا لقتال إسرائيل. وقد كان العراق سباقا في دعم أسر الشهداء والمحتاجين بالمال والمواد العينية. لكن النظامين لم ينتبها إلى نقطة هامة جدا وهي أن الدعم القوي والحقيقي للانتفاضة يتمثل في صنع ظهير استراتيجي للشعب الفلسطيني بحيث يستطيع تصعيد الانتفاضة إلى مقاومة مستمرة وهو مطمئن أن جهوده لن تذهب سدى.

بدل التفكير معا في صنع وضع استراتيجي في مواجهة إسرائيل تقيم العراق معسكرات أو أمكنة لمجاهدي خلق وتوجه إيران صواريخها ضد العراق بدل توفيرها لجهة شديدة الخطورة على الأمة. أثبتت إيران مؤخرا قدرة عسكرية متصاعدة بإطلاقها عددا كبيرا من الصواريخ في فترة زمنية محدودة، لكن ما يترتب على القصف من إحباط في الشارع الفلسطيني يفوق بكثير كل الآمال التي يمكن أن تُعقد مستقبلا على القوة الإيرانية. ولا يقل الإحباط الفلسطيني الناجم عن استمرار النظام العراقي في جذب عداء النظام الإيراني. بمعنى أنه من المحتمل في الحساب المعنوي للدعم في مقابل الإحباط أن يكون للوضع بين العراق وإيران انعكاسا سلبيا على الساحة الفلسطينية يفوق بتأثيره ما يمكن أن يصنعه الدعم من إيجابيات.

الدعم المادي يذهب والدعم الاستراتيجي يبقى. لا شك أن الدعم المادي بأشكاله المالية والعينية يساعد الشعب الفلسطيني ولكن على تجاوز محنة آنية أو على تسيير الحياة اليومية، لكنه لا يرتقي إلى دعم يعزز من مواصلة المقاومة وتعزيزها حتى إزالة الاحتلال واسترداد الحقوق العربية والإسلامية كاملة. يمكن أن يتأتى تعزيز الوضع الفلسطيني بصياغة وضع استراتيجي على المستوى العربي والإسلامي يشكل ظهيرا ونصيرا وآلية رادعة للعدو الذي بالجوار وذلك البعيد القريب. وماذا ينفع الدعم إذا كان الذين يهبون للنجدة لا يستطيعون أن يسووا خلافاتهم ويبقى تعاونهم بعيد المنال. ولعل هناك من يتذكرون أن ما جرى في الكويت عام 1990 كان له أثر بالغ في إحباط الشعب الفلسطيني الذي كان منتفضا ضد الاحتلال. لم يستطع كل الدعم الذي قُدم للشعب الفلسطيني في حينه أن يمنع انهيارا سببه إحباط صنعته العلاقات غير الصحية بين الأنظمة العربية.

لم تعد الشعوب جاهلة كما يمكن أن يتخيل البعض وهي دائمة التساؤل والبحث عن إجابات. العراق وإيران مطالبتان بتقديم تبريرات وتفسيرات مقنعة لما يجري بينهما وذلك لإزالة كل لبس محتمل أو لتجنيد مؤيدين ربما يرغبون في هذا "الجهاد" المحزن. وإذا لم يتوفر ذلك فإنه من المهم أن يستمعا إلى رأي الشارع العربي والإسلامي ويقررا سيرهما بطريقة تخدم الأمة وتخرج عن الأطر الشخصية أو الفئوية الضيقة والمقيتة. مصالح الشعوب والأمة في الميزان ولا تحتمل التجاوز أو الاستهتار أو التغاضي.

الأمة بحاجة ماسة الآن لتحالف عربي–إسلامي غير موجه ضد عرب أو مسلمين وإنما ضد أولئك الذين يحشدون ضد الأمة إمعانا في إذلالها وسلب حقوقها. وإذا كنتم حريصين على الأمة ومصالحها فالطريق بيّن والنهج واضح. والعار ليس في استيفاء الحساب وديا وإنما في الذي يتلكأ عن مد اليد من أجل حل خلاف يقود نحو مستقبل يرسمه التعاون.